بسم الله الرحمن الرحيم

بحث حول قوله تعالى: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾

الطَّالب: حمزة محمَّد الروضي

الأستاذ: زكريَّا بركات

ممَّا وقع الخلافُ فيه بين أهل العلمِ: تفسيرُ كلمة «الجدِّ» في قوله تعالى ـ حكايةً عن قول الجنِّ ـ : **﴿وأنَّه تعالى جدُّ ربِّنا لم يتَّخذ صاحبةً ولا ولداً﴾** [الجنُّ: 3] . ونهدف من خلال هذا البحث إلى إلقاء الضوء على الآراء المختلفة في تفسير هذه الكلمة وما يرتبط بها من معانٍ ومرويَّات.

أوَّلاً ـ معنى الجدِّ في اللُّغة:

ذُكِرت للجَدِّ عدَّةُ معانٍ في اللُّغة:

المعنى الأوَّل: العظمة. ذكره كلٌّ من: الخليل في كتاب العين ج6 ص7، والجوهري في تاج اللُّغة وصحاح العربيَّة ج2 ص245، وابن فارس في كتاب معجم مقاييس اللُّغة ج1 ص 406، وابن منظور في كتاب لسان العرب ج 3 ص 108، ومرتضى الزبيدي في تاج العروس ج4 ص 391.

ويلحق به معنى الجلال، كما في تهذيب اللُّغة للأزهري ج10 ص245، ولسان العرب ج3 ص108، وتاج العروس ج4 ص391.

المعنى الثَّاني: الغِنَى. ذكره: الخليل في كتاب العين ج6 ص7، والصاحب بن عباد في المحيط في اللُّغة ج6 ص391، وابن فارس في معجم مقاييس اللُّغة ج1 ص407.

ولكنَّ في وصف الغِنَى بالتعالي غرابة، ولذلك يبعد إرادةُ هذا المعنى في الآية الكريمة.

المعنى الثَّالث: البخت أي الحظُّ. ذكره: الأزهري في تهذيب اللُّغة ج10 ص246، والصاحب بن عبَّاد في المحيط في اللُّغة ج6 ص391، وابن منظور في لسان العرب ج3 ص108، والزبيدي في تاج العروس ج4 ص377.

ويبدو أنَّ البخت لفظ دخيل وأصله فارسي، بدليل قول ابن جرير الطبري في تفسيره جامع البيان ج14 ص 127: «الجدُّ الذي بمعنى الحظ. يقال: فلان ذو جدٍّ في هذا الأمر: إذا كان له حظ فيه. وهو الذي يُقال له بالفارسية: البخت.

المعنى الرَّابع: الرِّزق، ذكره: الأزهري في تهذيب اللُّغة ج10 ص245، وابن منظور في لسان العرب ج3 ص108، والزبيدي في تاج العروس ج4 ص378؛ وذُكر في المعجم الوسيط ج1 ص147.

المعنى الخامس: أبو الأب. وهو أعرف المعاني في اللُّغة العربية، وأكثرها أنساً إلى العرف العام؛ ولذلك لا نرى داعياً لذكر مصادر من ذكره من أهل اللُّغة. ومع ذلك فهو أبعد المعاني اللُّغوية مناسبةً للذات المقدَّسة؛ بل هو باطل بإجماع أهل العلم، ولذلك لم يقل به أيُّ مفسِّر. ولكن يمكن نسبته إلى الجنِّ على وجه الجهالة كما سيأتي في بحث التفسير.

ويُفهم من كلام الطبري في تفسيره ج14 ص127 أنَّ كلمة الجدِّ ينحصر معناها في اثنين: الأوَّل أبو الأب، والثاني الحظِّ والحظوة، وأنَّ معاني (المُلك والسُّلطان والقدرة والعظمة) تندرج تحت الحظوة العالية.

ثانياً ـ أقوال المفسِّرين في معنى الجدِّ في الآية الكريمة:

فُسِّرت الكلمة في مصادر الإماميَّة بمعنيين:

الأوَّل: العظمة والجلال، ذكره: الطوسي في تفسير التبيان ج10 ص115، والطبرسي في تفسير مجمع البيان ج10 ص145، والشيخ ناصر مكارم الشيرازي في الأمثل ج19 ص81.

وهذا المعنى مناسب للمعنى الأوَّل المذكور آنفاً من كتب اللُّغة، ولكنه مناف للرواية المعتبرة عن أهل البيت عليهم السلام كما سيأتي في استعراض الأحاديث الشريفة.

والثَّاني: البَخْتُ، وهو الظاهر من كلام عليِّ بن إبراهيم القمي، على ما في التفسير المنسوب إليه. واستدلَّ بعبارة كأنها رواية عن المعصوم، فيها: (هو شيء قالته الجنُّ بجهالة فلم يرضه الله منهم). ثم ساق رواية أخرى عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ تؤيد المفاد نفسه. انظر: تفسير القمي ج2 ص388، وعنه تفسير البرهان ج5 ص 506، وتفسير الصافي ج5 ص234.

أقول: ليس في الرِّواية ما يدلُّ على أنَّ ما قالته الجن قصدت به البخت، فقد يكون مقصودها أبو الأب؛ وهو المعنى المجمع على بطلانه.

وأمَّا في مصادر التفسير عند مدرسة الخلفاء، فقد ذُكر للجَدِّ عدَّة معانٍ:

الأوَّل: العظمةُ والجلال. تبنَّاه الطبري في تفسيره ج14 ص127، وذكره الزمخشري في الكشَّاف ج4 ص146، والقرطبي في تفسيره ج10 ص184عن أنس وعكرمه ومجاهد وقتادة.

ولم يرَ الطبري تنافياً بين هذا المعنى ومعنى الحظِّ، بل قال ما معناه أنَّ العظمة والملك مندرجان تحت الحظِّ لكونهما من مصاديق تعالي الحظِّ.

وهذا القول موافق للقول الأوَّل المذكور في مصادر الإماميَّة، كما إنَّه مناسب للمعنى اللُّغوي الأوَّل. إلَّا أنَّ القول بأنَّه مندرج تحت معنى الحظِّ والبخت ممَّا تفرَّد به الطبري.

الثَّاني: الأمرُ والقدرة. ذكره: الطبري في جامع البيان ج14 ص126 عن ابن عبَّاس، وحكاه ابنُ الجوزي في زاد المسير ج7 ص130 عن ابن عبَّاس والسدي، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم ج4 ص156عن ابن عبَّاس.

أقول: إن كان المقصود بالأمر والقدرة ما يؤول معناه إلى العظمة والجلال، فينبغي أن يُلحق بالمعنى الأوَّل. وإن كان المقصود به معنى مستقلًّا فيضعفه أنَّه غير مذكور في كتب اللُّغة.

الثَّالث: الغِنَى. ذكره: الطبري في جامع البيان ج14 ص126 عن الحسن، وابن الجوزي في زاد المسير ج7 ص130 عن الحسن، والقرطبي في تفسيره ج10 ص184 عن أنس والحسن وعكرمه.

وقد تقدَّم ذكرُ هذا المعنى من مصادر اللُّغة، وأنَّ فيه بُعداً من حيث عدم مناسبة وصف العلوِّ للغنى.

الرَّابع: أبو الأب. ذكره: الطبري في جامع البيان ج14 ص127 ناسباً ذلك إلى الإمام الباقر عليه السلام، بوصف القول حكاية عن جهلةِ الجنِّ. قال الطبري: وقال آخرون: عُني بذلك الجدُّ الذي هو أبو الأب، قالوا: ذلك كان من كلام جهلة الجنِّ. ذِكرُ من قال ذلك: حدَّثني أبو السائب، قال: ثني أبو جعفر محمد بن عبد الله بن أبي سارة، عن أبيه، عن أبي جعفر: **﴿تعالى جدُّ ربِّنا﴾** قال: «كان كلاماً من جهلةِ الجنِّ». وقال القرطبي في تفسيره ج10 ص184: وقيل: إنَّهم عَنَوا بذلك الجدُّ الذي هو أبُ الأب، ويكون هذا من قول الجنِّ. وقال محمد بن علي بن الحسين وابنه جعفر الصَّادق والرَّبيع: «ليس لله تعالى جدٌّ، وإنَّما قالته الجنُّ للجهالةِ فلم يؤاخذوا به».

أقول: ليس في لفظ المرويِّ عن الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ تصريح بمراد الجنِّ، ولكن يظهر أنَّهم لما وجدوا معنى (أبو الأب) هو المعنى الذي يناسب الجهالة، نسبوه إلى الجنِّ في قول الإمام الباقر عليه السلام.

الخامس: الذِّكرُ. ذكره: القرطبي في تفسيره ج10 ص184عن مجاهد، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم ج4 ص 15 عن أبي الدرداء ومجاهد وابن جريح.

وممَّا يوهن هذا القول أنَّه غير مذكور في كتب اللُّغة، كما إنَّه يوجب التعارض في المنسوب إلى مجاهد؛ لأنَّهم نسبوا إليه القول الأوَّل أيضاً.

السَّادس: المُلك والثَّناء والسُّلطان. ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ج7 ص130 عن أبي عبيدة.

أقول: أمَّا المُلك والسُّلطان فمعناهما واحد، وإذا آل المعنى فيهما إلى العظمة والجلال فينبغي إلحاق هذا القول بالأوَّل، وإلَّا فهما ـ كمعنى الثناء ـ يوهنهما أنَّهما غير مذكورين في مصادر اللُّغة.

وأمَّا في مصادر الزيديَّة، فقد ذُكر للجدِّ معنيان:

الأوَّل: المُلك والسُّلطان. انظر: تفسير غريب القرآن المنسوب إلى الإمام زيد (ع) ص350.

ويُلاحظ عليه ما ذُكر في القول السَّادس من مصادر مدرسة الخلفاء. اللهمَّ إلَّا أنَّ جلالة الإمام زيد ـ إن صحَّت النسبة ـ تغني عن كتب اللُّغة.

والثَّاني: الأمر. انظر: التفسير المنسوب للهادي يحيى بن الحسين ج2 ص329.

وهو موافق للقول الثَّاني من الأقوال في مصادر مدرسة الخلفاء، وقد تقدَّم ذكرُ ما فيه إن كان لا يؤول إلى معنى العظمة والجلال.

ثالثاً ـ معنى الجدِّ حسب الأحاديث الشريفة:

لم أجد ـ حسب بحثي ـ في مصادر مدرسة الخلفاء ولا مصادر الزيديَّة حديثاً منسوباً إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في تفسير كلمة الجدِّ. وأمَّا في مصادر الإماميَّة فهناك عدَّة روايات ندرسها تباعاً.

1ـ قال الصَّدوق في الخصال (ص50) برقم 59: حدَّثنا أبي رضي الله عنه، قال: حدَّثنا سعد بن عبد الله، عن أحمد بن محمَّد بن عيسى، عن أحمد بن محمَّد بن أبي نصر، عن ثعلبة بن ميمون، عن ميسر، عن أبي جعفر عليه السَّلام، قال: «شيئان يفسد الناس بهما صلاتهم: قولُ الرَّجُل: تبارك اسمُك وتعالى جدُّك، وإنَّما قالته الجنُّ بجهالةٍ، فحكى الله عنهم، وقولُ الرَّجُل: السَّلام علينا وعلى عباد الله الصالحين».

وسند الرِّواية صحيح.

2 ـ وروى الصَّدوق في من لا يحضره الفقيه ج1 ص401 مرسلاً عن الإمام الصَّادق عليه السَّلام، أنَّه قال: «أفسد ابنُ مسعود على النَّاس صلاتهم بشيئين بقوله: تعالى جدُّك، وهذا شيء قالته الجنُّ بجهالةٍ فحكاه الله تعالى عنها، وبقوله: السَّلام علينا وعلى عباد الله الصالحين».

وسنده ضعيف بالإرسال، إلَّا على مبنى من يقول بأنَّ صيغة إرسال المسلَّم من مثل الشيخ الصَّدوق كاشف عن الاعتبار. وعلى كلِّ حال؛ صحَّة الرِّواية الأولى كافيةٌ في المقام.

3 ـ في تفسير القمي ج2 ص388، قال: حدَّثنا عليُّ بن الحسين، عن أحمد بن أبي عبد الله، عن الحسين بن سعيد، عن النضر بن سويد، عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السَّلام، في قول الجنِّ: **﴿وأَنَّهُ تَعَالى جَدُّ رَبِّنَا﴾**، فقال: **«شيءٌ كذِبَهُ الجِنُّ فقصَّهُ الله كما قال»**.

وعنه البرهان: ج5 ص506، وبحار الأنوار: ج60 ص 98.

ولم يظهر لي تعيين علي بن الحسين شيخ المصنِّف، وبقيَّة رجال السند إماميَّة ثقات، كما إنَّ في نسبة التفسير إلى القمي كلاماً بين الأعلام؛ ولذلك يصعب الحكم باعتبار الرِّواية، إلَّا على مبنى السيِّد الخوئي القائل بوثاقة جميع رجال تفسير القمي. انظر: معجم رجال الحديث ج1 ص49.

وتؤيِّده حكايةُ الطبري عن الإمام الباقر عليه السَّلام قوله إنَّه من قول الجنِّ قالته بجهالة، وقد تقدَّم النَّقل في القول الرَّابع من الأقوال في مصادر مدرسة الخلفاء. واتِّفاق الخاصَّة والعامَّة على الرِّواية عن الباقر ـ عليه السَّلام ـ مع اعتبار السند، مما يورث الوثوق بالصدور. وبذلك يتَّجه الإشكال على من اختار من علماء الإماميَّة معنى غير هذا؛ ولعلَّهم لم يقفوا على الرِّواية المعتبرة.

وأشكلُ منه اعتراضُ صاحب تفسير الأمثل على هذه الرِّوايات بما في نهج البلاغة (الخطبة: 191)، ولفظه: **«الحمدُ للهِ الفَاشِي في الخَلْقِ حَمْدُهُ، والغَالِبِ جُنْدُهُ، والمتعَالِي جَدُّهُ»**. فالرِّواية في نهج البلاغة بغير سند كما هو حال جميع نصوص نهج البلاغة، ولم أجد لها سنداً في مصدر آخر، فكيف يصح الإشكال بها على الرِّوايات التي فيها المعتبر سنداً.

***

خلاصة البحث

ذُكرت لكلمة «الجدِّ» في اللُّغة العربية عدَّةُ معانٍ، وهي: العظمة والجلال، والغنى، والبخت أي الحظُّ، والرِّزق، وأبو الأب.

ويُفهم من كلام أبي جعفر الطبري في تفسيره أنَّ كلمة الجدِّ ينحصر معناها في اثنين: الأوَّل أبو الأب، والثَّاني الحظُّ والحظوة، وأنَّ معاني (العظمة) وغيرها تندرج تحت الحظوة العالية.

وأمَّا في التفاسير فقد ذُكرت لكلمة «الجدِّ» عدَّةُ معانٍ، وهي: العظمة والجلال، والأمر والقدرة، والغنى، والبخت والحظُّ (حكاية عن قول الجنِّ) ، وأبو الأب (حكاية عن قول الجنِّ أيضاً) ، والذِّكر، والملك والسُّلطان.

وبعض هذه المعاني لا مستند له في اللُّغة، كما إنَّ بعضها لا يتلاءم مع صفة العُلوّ. إضافة إلى أنَّ نسبة معنى (أبو الأب) إلى الجنُّ هو بضرب من الرأي مع احتمال إرادتهم معنى البخت، وكذلك نسبة معنى البخت إلى الجنِّ ليس بدليل واضح لاحتمال معنى أبو الأب.

إلَّا أنَّ الوارد عن الإمام الباقر عليه السلام في كتاب الخصال ـ بسند صحيح ـ هو أنَّ عبارة (تعالى جدُّ ربِّنا) حكاية لقول الجنِّ، قالته بجهالة. ويؤيِّد هذه الروايةَ روايةُ من لا يحضره الفقيه ورواية تفسير القمي ورواية الطبري والقرطبي في تفسيرهما عن الإمام الباقر عليه السلام. ومقتضى هذه الرواية الصحيحة عن الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ أن يُحمل كلام الجنِّ على معنى (أبو الأب) كما فهمه الطبري، أو معنى الحظِّ والبخت كما فهمه القمي (حسب التفسير المنسوب إليه) .

ولم يظهر لي وجهُ إعراض بعض مُفسِّري الإماميَّة عن هذا المعنى المرويِّ عن الإمام الباقر عليه السلام بالرغم من صحَّة سنده. ومحاولة صاحب تفسير الأمثل تصحيح غيره بالاستناد إلى رواية نهج البلاغة التي وردت فيها عبارةُ **«الحمد لله الفاشي في الخلق حمدُه، والغالب جنده، والمتعالي جدُّه»** غير تامَّة؛ لعدم تماميَّة السند.

والحمدُ للهِ رَبِّ العَالمين

تمَّ الفراغُ من البحث يوم الأحد 27 ربيع الآخر 1445 هـ ، الموافق 12 نوفمبر 2023م

***